الأدب والفن في أسبوع

الاستاذ عباس خضر

أشرت في عدد مضى من « الرسالة » إلى المحاضرة التي ألقاها الدكتور أحمد أمين بك في حفلة افتتاح مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وموضوعها « جمع اللغة العربية » ووعدت بتلخيصها تلخيصاً يتضمن فكرتها كاملة . واليوم أذكر هذه الخلاصة ، ثم أعقب عليها ببعض الملاحظات

بدأ الدكتور بأن المثقفين كانوا في العهد الأول وصدر من الدولة العباسية يأخذون اللغة من أفواه العرب ، وكان بعضهم يذهب إلى البادية ويقيم فيها ليتعلم فصيح اللغة من أهلها ، فلما جاءت موجة التدوين اهتم قوم بجمع اللغة ، فجمعوها أولا من لغة القرآن الكريم والأحاديث التي صحت عندهم ، ثم تنقلوا بين القبائل العربية يجمعون كل ما يسمعون . ثم جد المؤلفون بعد ذلك في حذو حذو أهل الحديث ، فقسموا اللغة إلى متواتر وآحاد . وبين المحاضر معنى كل من المتواتر والآحاد ، وعنى خاصة بالاعتراض على الطرق المختلفة لجمع اللغة ، ووصل من ذلك إلى أنها كانت بدائية غير منتظمة ، إذ قال : إنما كان عملهم في الجمع بدائيا غير منظم ، إذ كانوا يلتقطون ما يسمعون من الألفاظ ويدونونها ولم ينصوا في الأعم الأغلب على القبيلة الواحدة التي جمعوا منها ألفاظهم

وأعبر تلك المقدمة عبراً ، فالمحاضر — فيما يبدو لي — يبغي من عرض طرق جمع اللغة وما أدت إليه من الكثرة وتضخم المعاجم ، الوصول إلى « الترادف » ليفنده ويبسط فيه رأيه . فالترادف أصله جمع الألفاظ من القبائل المختلفة لتكون كلها لغة عربية ويقع فيها تعدد الكلمات لمعنى واحد آتياً من استعمال كل قبيلة الكلمة منها ، يقول الدكتور : والقبائل كانت أعقل من أن تضع كل قبيلة لفظين لمسمى واحد ، فالقبيلة التي تستعمل كلمة « السكين » لا تستعمل كلمة « المدية » والقبيلة التي كانت تستعمل « البئر » لا تستعمل كلمة « القليب » فلما كان الجمع بدائيا ، وجدت ألفاظ كثيرة مترادفة ، ومن ثم كانت المعاجم مملوءة بالمترادفات . وفي رأيي أن المترادفات مع إعانتها للشاعر خصوصاً في الشعر العربي الذي يلتزم القافية وخصوصاً في الملاحم الطويلة التي تشتمل على أبيات كثيرة يحتاج معها إلى مترادفات كثيرة . وقد أنكرها ابن فارس وثعلب ، فقد روى أن ابن خالويه قال في حضرة سيف الدولة بن حمدان : إني أعرف للسيف خمسين اسماً ، فقال ابن فارس إني لا أعرف له إلا اسماً واحداً وهو السيف . فقال ابن خالويه : وماذا تقول في المهند والصمصام والبتار ؟ قال إنها صفات . يعني بذلك أنها اختلفت لدلالاتها على صفات غير الاسم ، وذلك كأسماء الله الحسنى فإنها تدل على صفات أكثر مما تدل على ذوات . والترادف في نظري ليس مزية من مزايا اللغات ، بل هو عيب من عيوبها ، فإن كان موجوداً في اللغات الحية كالإنجليزية والفرنسية فهو أثر من آثار اللغات القديمة . والمثل الأعلى للغة : لفظ واحد لكل مسمى ، فلا ترادف ولا اشتراك ، ولذلك كانت المترادفات في اللغات القديمة أكثر منها في اللغات الحديثة . ومع أن ألفاظا كثيرة عدت مترادفات وإن لم تكن مترادفة لدقة الفروق بينها مما أدى إلى عناية بعض العلماء من مستشرقين وعرب إلى تأليف كتب في الفروق ، كما فعل أبو هلال العسكري وكما فعل بعض الآباء اليسوعيين — إلا أنها مع ذلك من غير شك كثيرة في اللغة العربية ، مما ملأ المعاجم بالمترادفات وضخمها ضخامة كاذبة

وأخيراً قال الدكتور : ماذا نستنتج من كل ذلك ؟ نستنتج منه أن اللغة قد تضخمت تضخماً مزيفاً كثيراً ، وكانت نتيجة ذلك تضخم المعاجم تضخماً أيضاً مزيفاً ، وقد كان يقبل هذا لو لم تدهمنا الحضارة الغربية بكثير من المسميات والمعاني تحتاج لها إلى ألفاظ كثيرة ، وهي تغمرنا كل يوم بمئات المصطلحات التي كثيراً ما نعجز عن مسايرتها ، فكان المعول أن نتخفف من كثير من الكلمات ، لنفسح مكاناً لها في المعاجم . وقد فعلت قريش خيراً مما فعله جامعو اللغة العربية ومؤلفو معاجمها ، فإنهم صفوا اللغات المختلفة ونقوا خيرها واستعملوه لغة لهم وبها نزل القرآن ، فلم يجمعوا كل ما قيل عن القبائل بل تخيروا واقتصروا

على ما حسن وقعه فى أسماعهم وراق فى أذواقهم . بقى سؤالان هامان ، وهما : ألم يرد فى القرآن الكريم مترادفات لنثبت أن قريشاً اختارت من اللغات أحسنها ، والسؤال الثانى : أيهما خير ، أنضحى بوحدة القافية فى الشعر لتنقية اللغة من المترادفات ، أم نبقى عليها للابقاء على الشعر العربى فى شكله القديم ؟ ومن رأينا فى الإجابة عن السؤال الأول أن ليس فى القرآن مترادفات ، وإنما كلمات متقاربة المعنى وقفت الفروق بينها أو على الأقل اختلف وقع الكلمة باختلاف موضعها ، فقد تكون كلمة أوقع فى محلها ، وتكون الأخرى أوقع فى محلها الآخر ، وقد أدرك الجرجانى فى دلائل الاعجاز ذلك إذ قال إن كلمة أيضاً ليست من الكلمات التى تستحسن فى الشعر ولكن وردت جميلة فى بيت شعر وهو :

غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

وأما عن السؤال الثانى فيمكننا أن نهدر المترادفات ونهدر معها ورود القصيدة على قافية واحدة ، ويمكن فى اللاحم وأمثالها أن نغير القافية فى كل عدة أبيات كما اضطر البستانى أن يفعل فى ترجمة الإلياذة ، وبذلك كله نفسح مكاناً واسعاً فى المعاجم للكلمات الحديثة والمصطلحات الحديثة . وإذا لم تتح لنا فرصة الإجادة فى الشعر المرسل كما حدث فى بعض اللغات ، فليس أقل من أن نغير القافية بين جملة من الأبيات وأخرى ، وليست وحدة القافية بالأمر المقدس الذى لا يصح أن نخرج عنه ، ولكنه أمر اعتيادى وتقليدى ، مرده كله إلى الأذن الموسيقية

تعقيب

نرى أن النتيجة العملية التى يستخلصها الدكتور أحمد أمين بك من ذلك البحث الذى يعتبر حلقة فى سلسلة بحوثه اللغوية التجديدية التى يلقيها فى مؤتمرات المجمع — هى إعادة النظر فى ذلك التراث اللغوى المتضخم دون فائدة لنحذف منه المترادفات كى تحل محلها فى المعاجم الكلمات والمصطلحات الحديثة ، ويرى الأستاذ أن المثل الأعلى للغة أن يستعمل فيها لفظ واحد للمعنى الواحد وأن لا حاجة إلى المترادفات إلا فى قافية الشعر التى يمكن أن نستغنى عنها . وأنا أوافق الأستاذ الكبير على أن قافية الشعر ليست مقدسة وأنها لا تبرر ذلك التضخم الذى وصفه ، بل إننى أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأعجب كيف ثرنا على القافية فى النثر المسجوع وأقررناها فى الشعر ، والأمر فيهما واحد من حيث القيد الصناعى الذى يرجع إلى الأذن الموسيقية

ولكن هل كل الغرض من الترادف الإعانة على القافية ؟ لقد جاء فى تعبير الدكتور بالمحاضرة قوله : « فإنهم صفوا اللغات ونقوا خيرها » ترى لماذا استعمل « نقوا » بدل « اختاروا » ؟ إنه فعل ذلك لأن عبارة « اختاروا خيرها » يثقلها اجتماع الخاءين وهنا أسعفه الترادف بالفعل « نقى » الذى لا يثقل فى النطق والسمع مع « خيرها » ، وقال أيضاً : « واقتصروا على ما حسن وقعه فى أسماعهم وراق فى أذواقهم » ولو أنه كرر « حسن » مكان « راق » لما حسن وقع الكلام فى الأسماع وراق فى الأذواق . . ولو أنه أخذ باقتراحه فى صياغة المحاضرة فقرر الاكتفاء بالفعلين اختار وحسن دون مرادفتهما لوقع فى حرج من ثقل التعبير . ومثل هذا ما قاله الأستاذ نفسه عند نفى المترادفات فى القرآن ، فقد رأى أن مافيه كلمات تختلف باختلاف موضعها فقد تكون كلمة أوقع فى محلها وتكون أخرى أوقع فى محلها الآخر والمتأمل فى هذا لا يراه خارجاً عن الترادف وإنما هو استعانة به على استعمال الشىء فى موضعه

وقد تعرض الأستاذ لرأى ابن فارس فى الترادف إذ أنكر ابن فارس وجوده فى اللغة ووجه الكلمات المتعددة التى تطلق على شىء واحد بأن واحداً منها هو الاسم والباقى صفات كأسماء الله الحسنى ، ولم يعن الأستاذ بتفنيد هذا الرأى مع أنه يتفق وفكرته من حيث رأى أن اللغة تثقلها مترادفات كثيرة يجب التخلص منها . وفى نظرى أن تلك الكلمات وإن كان قد لوحظ فى استعمالها الأول ما بينها من فروق إلا أن هذه الفروق قد ذهبت مع الزمن وصارت الكلمات ذات دلالة واحدة ، فالشاعر — مثلا — إنما يأتى بكلمة « مهند » لأن القصيدة دالية ، ولو كانت ميمية لأتى بلفظ « صمصام » من غير لك

ولو فرضنا أن هناك لغة ينطبق عليها المثل الأعلى الذى ذكره الأستاذ ، فإن الإنسان لا يتصور لهذه اللغة أدبا ، فقد كفى بحاجة

التعبير العلمى واليومى ، ولكنها تكون بعيدة جداً عن الاعتبارات التى تلاحظ فى حسن وقع الكلام ، وفضل كلمة على أخرى فى موضعها ، وفى الظلال التى يضيفها لفظ دون آخر ... إلى آخر هذا الذى يحتاج إلى بحث وحده

على أننى أوافق أستاذنا الكبير الدكتور أحمد أمين بك إذا كانت خلاصة موضوعه: الضيق بالكثرة المتضخمة من المترادفات فى لغتنا وأكثرها ألفاظ حوشية وكلمات ميتة ، والدعوة إلى تصفية اللغة منها مع الإبقاء على المترادفات الحية المأنوسة وذلك كما فعلت قريش ، فإنهم لم يهدروا المترادفات كلها ، وما أظن الأستاذ يقول بذلك ، وإنا نراه يحتاط فى التعبير إذ قال إنهم اختاروا من اللغات أحسنها ، وهذا ما نريد

شكر الاستعمار :

أعلنت نقابة الصحفيين — يوم الخميس الماضى — عن محاضرة تلقيها زوجة أحد الزملاء موضوعها « أسرار المهنة فى رحلتى بشمال إفريقية » وامتلأت قاعة فاروق الأول للمحاضرات فى نادى النقابة ، بجمهور من الجنسين وقدمت السيدة على أنها صحفية ، ولذلك سنتحدث عن « أسرار المهنة » وتحدثت السيدة فقالت إنها ليست صحفية ثم أبدت هذا القول بعدم تعرضها المهنة وأسرارها ...

كثيراً ما سمعت محاضرات أو (شربتها) كما يقولون فى اللغة الدارجة عما يقع فيه المرء وهو غافل . . فلم أرد أن أشرك قراء « الأدب والفن » فى بلوته !

وكنت أغضى على هذه المحاضرة ، لو اقتصر الأمر فيها على فراغها من شىء ذى بال ، أو اقتصر على اللغة التى تحدثت بها السيدة إذ جانبت الفصيحة وكسرت العامية . . وكنت أستطيع أن أغضى أيضاً عن تهاون نقابة الصحفيين فى اختيار ما تجمع من أجله الناس فى قاعتها الفخمة

ولكن الذى لم أستطع له كتماناً ، وهو الذى حدا بى إلى كتابة هذا ، أن السيدة الفاضلة ، وهى تتحدث عن رحلتها بشمال إفريقية ، شكرت فرنسا ... لا على ما قام به الحكام الفرنسيون هناك من تسهيلات أو حفاوة بالزملاء فى رحلتهم ... وإنما شكرت « المحاضرة » فرنسا على ما قامت وتقوم به من أعمال لتقدم أهل شمال إفريقية ورقيهم . . ! أى أنها تشكرها على الاستعمار !

وقد علمت أن فى النقابة برنامجاً لأحاديث فى سلسلة أسرار المهنة فى رحلات ببلاد مختلفة ، وكل الذى أرجوه ألا يحدثنا أحد عن رحلة فى مصر يشكر فيها إنجلترا ...

الموسيقى والدين :

يقول الأديب « حافظ عبد السميع عمران » فى رسالة إلى :

« قرأت كلمة طريفة بجريدة المصرى مؤداها أن نستعين بالموسيقى فى جميع تراتيلنا الدينية . ويسأل صاحب المقال ويسأل معه مؤيدوه : لماذا لا ترتل القرآن والأذان وخطبنا الدينية على نغمات الموسيقى ؟ إن الموسيقى تنقلنا إلى عالم الانتشاء الحسى والاستمتاع الروحى فلماذا لا نتخذها وسيلة لتذوق ديننا ؟ ! » ثم يقول : « ونحن لا نرتاب فى أن الموسيقى تحرك الغرائز وتثير الشهوات وتبعثها على الهوى وتدفعها إلى السيطرة على العقول والإرادة الإنسانية ، فما فائدتها إذن للدين ؟ » ويمضى هكذا حاملا على الموسيقى لأنها — فى رأيه — تثير الغرائز والرغبات الشهوانية إلى أن يتساءل : وأين قداسة الدين فى جو تسوده الإباحية والتحلل الخلقى ... فى جو يسيطر عليه المجون والخلاعة ؟ أيريدون أن نهبط بالدين إلى الهاوية التى صرنا إليها ونجعله أداة لهو إشباعا لرغباتنا الشهوانية الوضيعة ؟

ولا شك أننا لا نرى الموسيقى بتلك المثابة ، فالموسيقى فن رفيع ، وقد أصبح بيان أهميته وأثره فى الإمتاع الروحى وترقية النفوس وما إلى ذلك ، من الكلام المقرر المعاد . أما استخدام الموسيقى فى اللهو الرخيص من حيث ما يصاحبها من غناء مبتذل ورقص مثير ، فهو أمر آخر لا ينبغى أن تخلط بينه وبين الفن الموسيقى العالى

أما ما كتب عن اتخاذ الموسيقى فى ترتيل القرآن والخطب الدينية والأذان فهو كلام يعمد إليه بعض زملائنا الصحفيين لإطراف القراء وإمتاعهم بما يلفت الأنظار ويجدد النشاط للقراءة . . وإذا كان الكاتبون الداعون إلى ذلك جادين فى دعوتهم فإنهم ولا شك بعيدون كل البعد عن روح الإسلام وثقافته ، وليس